اليمن

وجهة سياحية من الصعب التفوّق عليها

> نك ريدمين

رغم أن اليمن يفخر بما أطلقه عليه الرومان، وهو "عرب فيليكس" (الأرض العربية السعيدة)، فقد ناضل اليمن في الآونة الأخيرة بقوة من أجل الفوز بنصيبه من الإهتمام الذي يستحقه تراثه العريق من الحضارة العربية والذي يجري تجاهله غالبا من قبل أولئك الباحثين عن عناوين مثيرة. وعلى أية حال، فإن تعقّد الحياة الحقيقية لا يمكن أن تحتويه عناوين مكثّفة ومثيرة في وسائل الإعلام، وهو ما يتسبب في فقدان سياق الأمور فيتم بذلك حجب الحقيقة. واليمن ليست استثناءا هنا. وعلى الرغم من الصلة القديمة للبلاد مع اللغة العربية، وكونها "أرض القواميس"، فإن ما يصدق على اليمن الآن هو أن زيارتها مرة واحدة تعادل أكثر من ألف كلمة من التقارير الإخبارية

سوق الملح Souk Al-Milh

المدينة القديمة/صنعاء Old city/ Sana'a

يكون الوصول إلى المطارات عادة عملية مطولة تتضمن الكثير من ملء الاستمارات بروح بيزنطية، ثم تراجع من قبل مسؤولين حادي الطبع وغير كفوئين. ولكن توقعاتي كانت على طرفي نقيض مع الواقع، وهو أمر ينعش النفس. واللافتة التي تستقبلكم في مطار صنعاء تقول "أهلا بكم في اليمن". ويبدو أنها تترجم إلى أفعال واقعية، حيث أن الإجراءات برمتها تتم في ظرف عشر دقائق، بما فيها الحصول على تأشيرة الدخول السياحية. تركنا المطار، أنا وزميلي الذي يحمل

نفس الاسم، نيكولاس، تملئنا الدهشة من سهولة الأمر، وأحسسنا أننا فقدنا شيئا.

ولقينا سائقنا سعيد بتحية باللغة الفرنسية، وبابتسامة عريضة، وأشار إلى سيارته، وهي من طراز سيارات شرطة نيويورك، ولا يزال يغطيها اللونان الأسود والأبيض.. ولماذا لا؟ ويبدو أن سعيد الذي كان يخترق حركة المرور المزدحمة في صنعاء في الصباح غير متأثر بعدم وجود صفارة الإنذار فوق سيارته ولا بعدم وجود الأضواء الزرقاء اللامعة. وبأسلوب أفضل ما يمكن أن يوصف به هو كونه هادئا وواثقا، تمكّن بسرعة من الإبحار في الطريق السريعة الموصلة إلى مدينة صنعاء القديمة.

وأخيرا، أبطأ سعيد عند شوارع ضيقة، وتوقف وقادنا، سيرا على الأقدام، إلى الفندق، وهو في الأصل بيت قاض في المدينة القديمة. وصعدنا الطوابق الخمسة، وقد ضاقت أنفاسنا، لنصل إلى غرفتنا، ونضع أمتعتنا، ثم نرقى إلى السطح. وعلى الرغم من أنني درست صور صنعاء قبل مجيئي إلى هنا، فإن رؤية ما تضمه المدينة من مناظر ثرية، بعيني، جعل الأمر الذي لا يصدّق مصدّقا. ها هنا مدينة كانت قد صممت أصلا لتحتوي على 48 حيّا، و48 مسجدا و48 حديقة، وهي حتى هذا اليوم ما تزال تحافظ على بنائها المتميز حيث يرتفع البناء لعدد من الطوابق وتزيّنها أبراج من الطابوق المزخرف. كيف أمكن للرجال أن يتخيلوا مثل هذه المساكن الجميلة والفاتنة؟ إن البناء يتكلم بحكمة العالم القديم، حيث المعمار يستمد وحدته من نوع من المعرفة المغايرة لما هو في أوروبا، ويمكن القول إنه يحقق نتيجة أفضل. انس مانهاتن، هنا قامت أبنية السكن الشاهقة بطراز الجزيرة العربية الفريد.

وحينما عدنا إلى المستوى الأرضي، انتظرت نيكولاس. سألني عابر طريق "من أي بلد أنت؟". سأنا من إنكلترا"، قلتها بتفاؤل. فصاح "أوه، أوه. أنت في مكان خطير، سنقتلك!" ثم ضحك من أعماق قلبه، وأضاف "مرحبا بك في اليمن" قبل أن يلوّح بالتحية ويمشي في سبيله بافتخار.

وصل سعيد، وكان واضحا أنه قد غيّر ملابسه، ولبس الآن جلابية بيضاء، وكوفية حمراء، والأكثر إثارة هو الخنجر المعقوف، الجنبية، الذي شدّه، بشكل بارز، في خصره. ومن خلال استكشاف سوق الملح في المدينة القديمة، محاطين بحشود الناس، أصبح واضحا أن جميع الذكور البالغين تقريبا يرتدون نفس الثياب، وكنا نحن الاستثناء. وطمئننا سعيد بأن "الجنبية لا تستعمل في أوقات الغضب في الأعم الأغلب من الحالات، ولكن إذا جرّدت فإنه لا يمكن إغمادها دون إراقة الدم." ولكن هل يجعل ذلك الأمر مقبولا في تلك الحالة؟

وأخذنا طريقنا معززين في منطقة تختص دكاكينها بتجارة معينة أو بيع سلع معينة. وكان سعيد ينتظرنا، بصبر ونحن نتطلع إلى الحاجات الغريبة. وفوق كل هذا الصخب، كان الحداد ومساعده يطرقان المعدن الساخن، الذي يتطاير منه الشرر. وقريبا منهما، جلس باعة أكثر مجموعة من قدور الشاي وأواني الطبخ في العالم، وهم يتوسطون بضاعتهم بفخر. وكلما أصبح السوق أكثر ضيقا، كان باعة العربات الصغيرة يمرون بحذق وهم يحافظون على توازن بضاعتهم وهي أهرامات من المانجو. ولما استمررنا في السير، رأينا زقاقا يقود إلى فسحة حيث تباع أصناف

بائع الزبيب بالجملة
Raisin wholesaler

بائع التبغ
Tobacco vendor

الحداد/ سوق الملح
Blacksmith/ Souk Al-Milh

الزبيب. وفي أماكن أخرى، كان يباع التمر، والشاي، والأعشاب والتوابل أيضا، ولكل مكانه المخصص له، وربما لم يتغير ذلك لقرون، جنبا إلى جنب مع بائعي المرة واللبان اليمني واللذين لم يتغيرا بدورهما على مر العصور.

مشينا قليلا، وشاهدنا جمهورا هائجا وهو يحاصر كشكا على جانب الشارع، وأيديهم الممدودة تحمل النقود وتستلم في المقابل الأقداح المعدنية. لا يكون هذا إلا شيئا خاصا، ولذلك انضممت الى المعركة وجرت مكافأتي بكأس بارد من شراب الزبيب، وهو ما يستحق كل هذا الصراع. وجاء ذلك في الوقت المناسب أيضا، لأن بائع الزبيب سرعان ما استنفد كل ما عنده، تاركا عددا قليلا من سيئ الحظ الذين تقاسموا خيبة الامل بأفواههم الجافة قبل أن يضيعوا مرة أخرى في الزحام. ومع تناقص عدد الأكشاك في السوق واشتداد أشعة الشمس، فقد حانت الفرصة أمام بائع قبعات القش ليقوم بتجارة رائجة. خارج بوابة باب اليمن كانت مجموعة من الخياطين المتجولين تبحث عن الراغبين في شراء القماش بين المارة. شاهدت

المدينة القديمة- باتجاه باب اليمن

Old city- towards Bab Al-Yemen

المدينة القديمة/صنعاء

Old city/ Sana'a

عن بعد فوق البوابة حشود المارة وهي تغادر السوق، وكانت كثافة النشاط تضعف فقط قياسا إلى الحيّز الذي تشغله.

ولما اقترب وقت ما بعد الظهيرة، بدا لي جانب آخر من اليمن. إنه "وقت القات" كما أعلن سعيد. هل يكون هذا مساويا لوقت الغداء؟ كنت أتساءل. وكان الجواب واضحا في ضوضاء الأكياس البلاستيكية السوداء الصغيرة وانتشار الأمر بين الرجال كمثل الوباء. والقات الذي يشبه أوراق الياس هو المخدّر المفضل لكثير من اليمنيين وواسع الإنتشار. سألت سعيد "أليس ذلك سيئا لصحتك؟" فقال: "نعم، إنها سيئة للغاية. إنها مؤذية للثة، والأسنان والمعدة. ولكن إذا كنت بحاجة إلى التفكير، فالقات يساعدك. وهو جيد جدا، بالخصوص، إذا كنت تعمل مع الأجهزة الكهربائية." لقد بدأت عادة القات من بدايات إيمانية، فقد استعمل القات كمنشط للصوفية ليعوّضهم عن النوم ويساعدهم على العبادة لفترة أطول. ولكن عادة مضغ القات انتشرت في جميع أنحاء اليمن لتصبح هوسا عاما. وعلى الرغم من الإدعاءات بما للقات من كفاءة في الترويح عن النفس وتركيز الذهن في الوقت نفسه، ناهيك عن تحسين مهارات الهندسة الكهربائية، فقد سجلت ملاحظاتي قائمة طويلة من الوجوه الواجمة وهي تنحدر عبر شوارع المدينة. وتقدّر منظمة الصحة العالمية أن متوسط ما يضيعه مدمن القات اليمني من الزمن هو 1500 ساعة تقريبا في السنة فقط في مضغ القات، بينما يصل ما تنفقه بعض الأسر على هذه العادة إلى 50 من دخلها.

مرة أخرى وجدت نفسي في الطريق من جديد في سيارة سعيد، بنحو 15كم خارج صنعاء في وادي ظهر، وكان المنظر البانورامي يتجه نحو واحدة من أكثر مشاهد اليمن التي أخذت لها الصور، حيث تقف "دار الحجر" بطوابقها السبعة. وكانت يوما ما دار الحاكم المطلق الإمام يحيى في الثلاثينات من القرن العشرين. والقصر الذي يقف على حافة صخرية، ولا يمكن الهجوم عليه، ما يزال يملك موقعا ملكيا للإشراف على بساتين الفاكهة ومزارع القات في وادي ظهر. وبعد ذلك، رأيت قرية

بائع الزبيب Raisin seller

بائع الزبيب Raisin seller

المدينة القديمة/صنعاء Old city/ Sana'a

محصنة على قمة تل أعادت إلى ذهني نظيرتها في توسكان بإيطاليا. وتنظر اليونسكو حاليا في أمر وضع القرية ضمن قائمة التراث العالمي، ومن الواضح أن جهدا كبيرا قد تم إنفاقه للحفاظ على المباني المهمة وإبقاء الشوارع في حالة جيدة. وبالإضافة إلى السلع اليومية، فقد كان متجر أو اثنان يبيعان نوعا من الحلي يعجب بها السياح. وكانت هناك حتى خريطة شوارع باللغة الإنكليزية للبيع. غير أنه لم يكن هناك سياح. وقد اغتنمت الفرصة للبحث عن دكان الحلاقة، وهو عادة مكان رجولي لا تستطيع الوثوق به في البلدان العربية، حيث الخوف من موس الحلاّق. وبعد 300 ريال يمني، وشئ من الدردشة التي تكفل بها قاموس لا يزيد على 50 كلمة عربية والإشارات، فقد أنجز حلاّق ثلا عمله جيدا. على مسافه بضعة كيلومترات أخرى، في حبابة، كان المشهد مختلفا. المباني

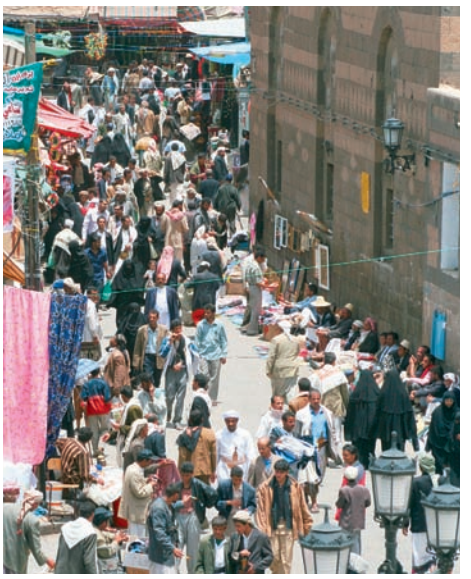

سوق الملح Souk Al-Milh

المتآكلة وأنقاض المنهار منها شكلت ملاعبا لعصابة من الأطفال الذين كانوا يرغبون في زيادة مخزوناتهم من الأقلام، وكانوا يصرخون "قلم! قلم! قلم!" وجنب المسجد، كانت هناك بحيرة جميلة تبدو على نشاز مع المناطق المحيطة بها. وهنا افتتح واحدا من الأولاد دكانا للمشروبات الغازية في كوخ خشبي. وبين نوبات من أخذ الصور تمتعنا بشرب الفانتا والكل يبتسم بوجه الآخر.

الآن وقد تجاوز الجوع سحر المكان، فقد وجدت ضالتي في الأمرين في شبام حيث مطعم "الحميدة" يقدم الأكلات التقليدية الهائلة. وسرعان ما فرغت من مـ اعون السلته وهي نوع يمني ممتاز من حساء الخضر واللحوم، تلاه صحن من لحم الخروف بالبطاطس والتوابل، واللبن، والشافوت (وهو نوع من الخبز)، وأنهيت الأكلة بحلوى تسمى "بنت الصحن" والشاي. لقد كانت مأدبة.

لما عدنا إلى صنعاء، تركت صاحبي نيقولا يتحدث على تلفونه الجوال، محاول جعل صوته مسموعا في الوقت الذي كان فيه الآذان ينطلق من 48 مسجدا في المدينة. مشيت في شوارع هبط عليها الظلام متجها نحو السوق، وعثرت على مقهى بسيط لا يزال الشاي يقدم فيه وحيث يتوفر جو للتفكير. وبالنسبة لمعظم الأوروبيين تعتبر صنعاء مدينة محرّمة واليمن بلدا مغلقا. ولكني، وكسائح بريطاني نادر، لم أعاني شعورا بالخطر في الشوارع ولم تكن

المدينة القديمة Old city/ Sana'a

هناك قيود على تجوالي. جميع اليمنيين الذين قابلتهم، وبدون استثناء، كانوا ودودين وكثيري الترحيب. كانت لدي بضعة أيام أخرى لاستكشاف ما تبقّى، ولكن الواقع القاسي لكون رحلتي هي رحلة وجيزة أفادني في تركيز ذهني على سبل لتبرير زيارة مقبلة. وتقدم مدارس صنعاء لتعليم اللغة العربية، والمنتشرة في المدينة، بعض الأمل. إن الدراسة والسكنى سوف يحسّنا قدرتي على التواصل مع 400 مليون بشر في العالم من المواطنين العرب، وواضح أن الحديث لن يكون معهم جميعا مرة واحدة. وسيكون ذلك أرخص من البقاء في إنكلترا! ولكن، كيف يمكنني أن أقنع زوجتي بالفكرة؟

لأولئك الذين يبحثون عن منطقة خالية من ماكدونالد، وبلد خال من المظاهر السريعة الزوال، وحيث لا تزال للوقت فضيلته، وحيث اللغة سببا للفخر الوطني، فإن اليمن هو الوجهة التي تصعب منافستها. لا تتجاهل المشاكل الأمنية، واستمع بالتأكيد إلى النصائح، ولكن في النهاية كن على استعداد لاتخاذ رأيك الخاص. اليمن الذي يوفر معجما من التجارب الغنية سوف يثيب بسخاء أي مسافر مفتون بالحياة العربية الأصيلة. ■